الجندر وموت المذكّر الأبدي، نشوئيّة المفهوم ومآلات الفلسفة الحاضنة

الدكتور النافع عبد الجليل

تونس

مقدّمة:

لما كان كلّ من الثقافة و المجتمع البطريكي، يطابق بين الأنثى والأنوثة، أو بين الأنثى والمرأة، فيحيل ما هو اجتماعي وثقافي وتاريخي، إلى ما هو بيولوجي وطبيعي، وما هو نسبي ومتغير ومبني بناء، إلى ما هو مطلق وثابت ومقدس ولا تاريخي، فإنّ مدار الصراع الذي تخوضه المرأة ضدهما، قائم أساسا على "نفي أن تكون الأنوثة جوهرا بيولوجيا أو طبيعيا، وعلى نقض محاولتهما المطابقة بين الأنثى والأنوثة.[1] فالأنثى تشير إلى العناصر البيولوجية، بينما تشير الأنوثة إلى مجموعة من الصفات التي يُنظَر إليها على أنّها مطابقة للنّساء. والحال أنّها بناء اجتماعي وثقافي تتّفق عليه كل الحركات المناهضة لهذه التصورات العقيمة بريادة "الحركات النسويّة في مَوْجَتيْها الثانية والثالثة.[2]

فاضطهاد النّساء، أو التّمييز بين البشر على أساس الجنس، شأنه شأن العنصرية، يمكن أن يرتكز على الثقافة بدل الطبيعة، ما إن يقال إن مجموعة من الصفات الثقافية والاجتماعية التي يتميز بها هذا العرق أو ذاك الجنس، هي صفات ثابتة تتعدى المراحل التاريخية والشروط الاجتماعية. ثم إنّ جسد الإنسان من حيث الذكورة والأنوثة، ليس قدرا في مقاربة عالم النّفس سيغموند فرويد، وسعى مفكرو الثورة الصّناعيّة إلى إقراره، بزعمهم "أن الذكورة الخالصة حصيلة أمر فِطريّ موروث، يولد به الإنسان ويحدّد نوعه، فيبقى ثابتا بصورة قطعية وجوهرية."[3]

1- المجتمع البطريكي Patriarcal Society وإنتاج المذكّر الأبدي

إنّ الاختلاف كائن في الكون منذ البدء، وفي مضانّه حلّت كل من الغرابة والدّهشة. فكان السؤال قائما فينا كأنه الطّود، يهفو إلى تمثل آياته: اختلاف في اللسان واللون، والليل والنهار، والذكر والأنثى ... إنه اختلاف مخصب يهب الكون دلالته، والوجود معانيه، والحياة هديرها، والوعي يقظته " فلو لم تختلف الذوات، لمات المعنى وسيطر الفراغ ... ولو لم تختلف الذكورة على الأنوثة، لمات الشوق وسيطر الخواء وعمّ الفناء".[4]

ورغم مثول الاختلاف واقعا، ظلّ الخلاف بين المجتمع البطريكيّ، بما هو "بنية سيكولوجيّة (Structure Psychologique) واجتماعية وثقافية ناتجة عن شروط تاريخية حضارية، تكونت من مجموعة من القيم، وأنماط

من السلوك ،ترتبط بنظام اقتصادي تقليدي له خصوصيته، يجعل الرجل على رأس الهرم فيصبح العمود الفقري للأسرة و المجتمع،"[5] و يؤدي مهمة إنتاج المذكر الأبدي،[6] وبين الحركات النسويّة ماثلا، وفي أتونه نشأ مصطلح الجندر،[7] ليكون "مرآة ناطقة بذلك الخلاف. فالنّسويّة كحركة، كانت بحاجة إلى مفهوم يميز بين الجنس sex، باعتباره معطى بيولوجيّا يقسّم البشر إلى ذكور وإناث، وبين البناءات الاجتماعية والثقافية والنفسية المفروضة على هذا الاختلاف الجنسي."[8]

بذا يكون الحديث عن الجندر، بحثا من ناحية عن دلالات الذكورة والأنوثة معا، وما يرتبط بالتشكيل الثقافي لهوية الجنسين من إيديولوجيا وهيمنة، وهو من ناحية ثانية، ضرب من الكشف عن أن الرجل هو أيضا ضحية مجتمع، يكبّله بتعريفاته الخاّصة للذكورة، وإبانة عن الكيفية التي تستبطن فيها الإناث أدوارهن الجندريّة، ويقنّن فيها الرجال هذه الأدوار، على نحو يبيّن أَخريَّة المرأة وخضوعها للرجل،"[9] وظلّت المقاربة الجندريّة، تغير في المعرفة ووسائطها وتربك ثوابتها، وتقوض ما استقر من مفاهيم اكتسبت صفة البداهة، وألفها الوعي الجمعي كمسلمات مقدسة، وتزرع في القارئ القلق، حتّى لا اطمئنان إزاء المسطور والمتّفق عليه.

2- المقاربة الجندريّة وكتابة تاريخ اضطهاد النساء

لما كان كل بنيان عرضة للشروخ، تهاوت حصون المجتمع البطريكي، وتصدعت ثقافته الإستيتيكيّة المحنّطة بمقدساتها الواهمة، منذ أبحاث الأنتروبولوجية مارغريت ميد (Mead Margaret) في كتابها "الجنس والمزاج في ثلاث مجتمعات بدائيّة بجزيرة ساموا بغينيا" الصادر سنة 1935، الّتي خصّت بها مبحث الذّكورة والأنوثة عند شعوب الماندوغامور (Mandogamore) والأرابيش (Arabishe) وتشامبولي (Chamboulai).[10]

وأسفرت تلك الدراسات، عن الإقرار بأنّ هذه القوالب النمطيّة الشّائعة للسّيمات الأنثويّة والذكوريّة ليست فطريّة، بل هي نتاج للتّكييف الاجتماعي، وأنّ الصفات الّتي توسم بكونها سلبيّة وتعزى للمرأة، يمكن أن تنقلب إلى ضديدها، إذا أخضعت لثقافة معاكسة. فهي صفات ألصقتها الثقافة بالمرأة لا الطبيعة. وظلّت منذ البدء توجد في حوض ثقافي" يختزل هويّتها الأنثويّة في الضعف والوهن والهشاشة.[11] وسكن الاختلاف بناء كل من الذّكورة والأنوثة، لاختلاف الأديان والعصور والأعراف، ثم تدعّمت هذه الحركة التّصحيحيّة الثورية المضادة مع سيمون دي بوفوار (Simone de Beauvoire) في كتابها "الجنس الثاني" سنة 1949 بقولتها الشهيرة: “On ne nait pas femme, on le devient”

بمعنى أن المرأة لا تولد امرأة، وإنما تصبح كذلك. وتبدأ بتعريف نفسها "أنا امرأة"، بينما الرجل لا يلجأ للقول "أنا رجل،" فتشعر المرأة مقارنة بالرّجل أنها الآخر الدّوني الغفل. وتسفر أبحاث الكاتبة الفرنسيّة دي بوفوار، عن اعتقاد ماثل في أنّ المجتمع، هو الذي ساهم في خلق الصورة النمطية للمرأة، لتكون جنسا آخر، والحال أنّه لم يعد ممكنا التسليم بأنّ الفوارق بين الجنسين قائمة فقط على أساس الطبيعة ولا علاقة لها البتة بالتشييد الاجتماعي والثقافي للجسد،" وأضحى من المستبعد الاكتفاء بالهويّات الجنسيّة الثابتة من جنس (رجل/امرأة) أو نوع (مذكر/مؤنث).[12]" فالهوية الجنسية، شأنها في ذلك شأن كل التمثّلات البشرية، متحولة وسياقية."[13] فذكورة الرجل وأنوثة المرأة، ليست معطى ما قبلياّ، ولا أساس انطولوجيا لها، إذ هوية النوع تضع دون انقطاع."[14]

إن الأسئلة الحارقة التي طرحتها سيمون في كتابها "الجنس الثاني،" دعمت التوجّه المنتصر لمقولة الجندر، التي عزّزت بدورها نضال الحركة النّسويّة في موجتها الثّانية، "في غمار البحث عن أسباب هيمنة الذكور على الإناث،" [15] وذكتها أبحاث عالم النفس الأمريكي روبار ستوولر، (Stoller Robert) بكتابة "الجنس والجندر" سنة 1968، وإليه يعزى الفصل بين الجنس والجندر.[16]

3- الجندر: نشوء المفهوم والفلسفة الحاضنة

يعد الجندر حديثا من حيث اللفظة، قديما من حيث المضمون، غربي الجنسية شرقي الملامح. إذ لاح موضوع درس في البداية تحت عنوان علم اجتماع المرأة (sociologywomen)، ثم أضحى علم اجتماع الجندر موضوعا رئيسيا في علم الاجتماع، مداره أهمية البنية الاجتماعية والثقافية في ترتيب العلاقة بين الرجل والمرأة. "فغاية العلوم الاجتماعية، ليست اكتشاف الحقيقة، بل نقض المعارف المهيمنة التي تقمع الناس" [17] .

إن مفهوم الجندر genderانجليزيّ، ينحدر من أصل لاتيني، ويعني الجنس من حيث الذكورة والأنوثة. وتشير الأدبيّات إلى أن مصطلح "جندر" استخدم لأول مرة من قبل آن أوكلي An Oakley في كتابها "الجنس والنوع والمجتمع" سنة 1972، لوصف خصائص الرجال والنساء المحددة اجتماعيا، مقابل الخصائص المحددة بيولوجيا. فرأت أن الشعوب والثقافات، تختلف بشكل كبير في تحديدها سماتِ الذكورة والأنوثة و الفصل بين مفهومي الجنس والجندر، مستعيرة فكرة التمييز بينهما من عالم النفس الأمريكي Robert Stoller. و من ثمة عرّفت آن أوكلي الجنس بأنه "الخصائص الفيزيولوجية التي تميز الذكور عن الإناث،[18] بينما يستوي الجندر عبارة عن الذكورة (masculinity) والأنوثة (femininity) المبنيين اجتماعيا والمشكّلين ثقافيّا ونفسيّا.[19]ويتم اكتساب هذه المفاهيم من خلال التنشئة الاجتماعية، التي يتعلم الإنسان من خلالها كيف يصبح ذكرا أو أنثى في مجتمع معين، وفي زمان معين.

بذا يكون الجندر ماثلا في قدرة "التشكيل الثقافي على إكساب الفرد تصوّرا محددا للذكورة أو الأنوثة.[20]فهو مقولة ثقافية و اجتماعية و سياسية،[21] تتجلّى في الأدوار التي تقررها المجتمعات و تبنيها بين الرجل و المرأة، و أداة فعل في الواقع، وبحث في مجالات التنمية من حيث التقسيم الاجتماعي للأدوار.[22]فلئن كان تقسيم البشر إلى ذكور و إناث يتكئ على الجنس sex"كمعطى ثابت في البيئة الوراثية"،[23] فإنّ الجندر، هو البناءات الاجتماعية و الثقافية و النفسية المفروضة على هذا الاختلاف الجنسي البيولوجي، أي "ما تفعله الثقافة و المجتمع بالجنس إذ يصوغانه و يشكّلانه أو يبنيانه".[24] وتتم هذه العملية حسب "منظومة المجتمع الثقافية و الاجتماعية والسياسية في حقبة زمنية معينة".[25]

4- الخروج من دور "تجديد الخزينة البيولوجية "إلى التّمكين والتّماثل:

تسلّحت المرأة من خلال مقولة الجندر، بآلية مؤثرة استطاعت من خلالها أن تنجح في التّسويق لفصل المساواة الجندريّة في إطار الحركة النّسويّة، التي اخترقت بعض المستويات العليا في منظمات عالمية كالأمم المتحدة، ونجحت في عقد مؤتمرات دوليّة تخص قضايا بالمرأة، لعل أشهرها مؤتمر ببكين سنة 1995 تحت شعار "إعادة صياغة المجتمع عن طريق رؤية العالم من خلال عيون النساء". فالناس كائنات اجتماعية، والبيولوجيا ذريعة لتعيين هوياتهم الجنسية في المجتمعات البطريركية تحديدا، إذ التأنيث عبارة عن مجموعة من الصفات والحالات، إذا تمثّلها الجسد النّسوي، فهو مؤنث وإلاّ فهو خارج الأنوثة.

لقد تم استغلال الفروق البيولوجية بين الجنسين، من خلال حصر دور المرأة في الإنجاب وتنشئة الأطفال ورعاية الزوج. فحجبت من ثم، عن المشـــاركة في الحياة العامة لفترة طويلة من الزمن، إلى درجة جعلت البعض يحصـــر أفقها في وضـــع "الأمومة الدائمة".[26]وتشبّه الباحثة شيري اورتنر (orthner Sherri) مقابلة المرأة للرجل، بمقابلة الطبيعة للثقافة. فالمرأة تشبّه بالطبيعة بسبب قدرتها على الإنجاب وخصائصها البيولوجية، ويشبّه الرجل بالثقافة بسبب السلطة والموارد التي يتمتع بها للسيطرة على الطبيعة وتسخيرها لخدمته.[27]

ذلك هو وضـع المرأة التي ظلت خارج دائرة الإنصـات، تقبع في زاوية المهمّش والنّفي لوجود من يتحدث بالنيابة عنها، ويفكر لها، و يوجهها باعتبارها "هوية مجهولة في صوت جمعي يستغرقها".[28] تعيش في جو من الكتمان النفسي، وإخفاء الحقائق، خوفا من "صـــدور حكم الجماعة عليها بالنفي و الرفض و الوصـــم".[29]وهو ما أكّده التراث الســـوســـيولوجي والأنتروبولوجي، بإشـــارته إلى أنّ ملامح صـــورة المرأة تبدأ في التشـــكل منذ اللحظات الأولى لوجودها في عالم المادة، وثمّة تصـــورات و أفكار تســـتبق وجود الجســـد الأنثوي، و تعكس أمرا واحدا وحاسما ماثلا في "أنّه جســـد غير مرغوب فيه ". فالجسـد الأنثوي يعاني في لحظاته الأولى، من التمييز النوعي. فهو يعايش مبكّرا إشـكالية المقارنة بالجسـد الذّكوري، وهو ما

يعني أنّ المكانة الاجتماعية التي سيشغلها ذلك الكيان الاجتماعي الوليد، قد حدّدت وحسمت سلفا، احتكاما إلى كون الإقصاء والتهميش سابقان فعليا على وجود المرأة في الواقع الاجتماعي.

لقد أنتجت هذه النظرة إلى الجسد الأنثوي، حكما بحجبه وحصر وظيفته في إعادة الإنتاج البشري (الإنجاب للذكور خاصة ...) "لتجديد الخزينة البيولوجية للعائلة،"[30] "وظل ذلك التصور المختزل محايثا للمرأة في مختلف مناشط الحياة الاجتماعية." [31]

ويكفي أن تدرك المرأة أنّها تنتمي إلى الجنس الأنثوي، حتى تعي أن لها أدوارا أساسية بعينها. فالجنس أصبح تقريبا مرجعا للهوية، قنّن وضعية استلاب المرأة ودونيّتها. وشرّع بذلك لحضور الجندر ضرورة، احتكاما لكونه "يولي اهتماما للطرق التي أنتجت فيها الثقافة السائدة في مكان وزمان ما، تعريفا للذكورة والأنوثة كقطبين متعارضين ومختلفين، مع وجود الذكر في موقع القوة والسيطرة ".[32]

فلو أننا تجاوزنا الاستقطاب الجند ري، الذي يؤدي إلى اعتبار كل جنس مناقضا للآخر ومعاديا له، ونظرنا إلى الجنس الآخر على أنه مختلف فقط، فسيتولد لدينا اتجاه يدعو إلى ضرورة التعاون والتكامل بين الجنسين. ويعزّز "التنافس نحو الارتقاء للأفضل، و ليس القضاء على الآخر، أي قاعدة التكامل والتكميل لا القوة و الأفضلية.[33]"لذا، فإن مفهوم الجندر، يهدف إلى إعادة توزيع الأدوار و المسؤوليات، فتتخلص المرأة من الصورة النمطيّة التقليدية التي وسمها بها المجتمع لبطريكي حفاظا على سطوته، و يتم "تمكينها" بتوفير الظروف الملائمة لإدماجها، و إعطائها الفرص لإبراز قدراتها. وهو أمر مرتهن بتغيير التصورات الموجودة حولها، سعيا إلى إشراكها في تسيير مؤسسات المجتمع إداريا وسياسيا، كالتخطيط والتشريع والتنمية.

إن إبعاد الجندر من مقولة "التمكين،" هو زيادة قدرة المرأة على اتخاذ القرارات المصيرية في حياتها ممّا يتطلب تغيير المنظومة الاجتماعية برمتها، وإعادة صياغتها من جديد، "بتقسيم الأدوار على أساس أكثر توازنا ومساواة."[34] وهو أمر لا يتأتّى إلا بتغير القوانين التي تحدّد أدوار كل من الرجل والمرأة. لذا رافقت الدّعوة إلى تحقيق "تمكين المرأة"، شعارات، من قبيل المرأة والمشاركة، والمرأة وبناء القدرات، والمرأة والسيطرة على الموارد، وهو ما استقر في الأدبيات بمصطلح التماثل.

ولعل هذه الرّسمة / الخطاطة[35] تجمل ما كنا قد فصلنا فيه القول:

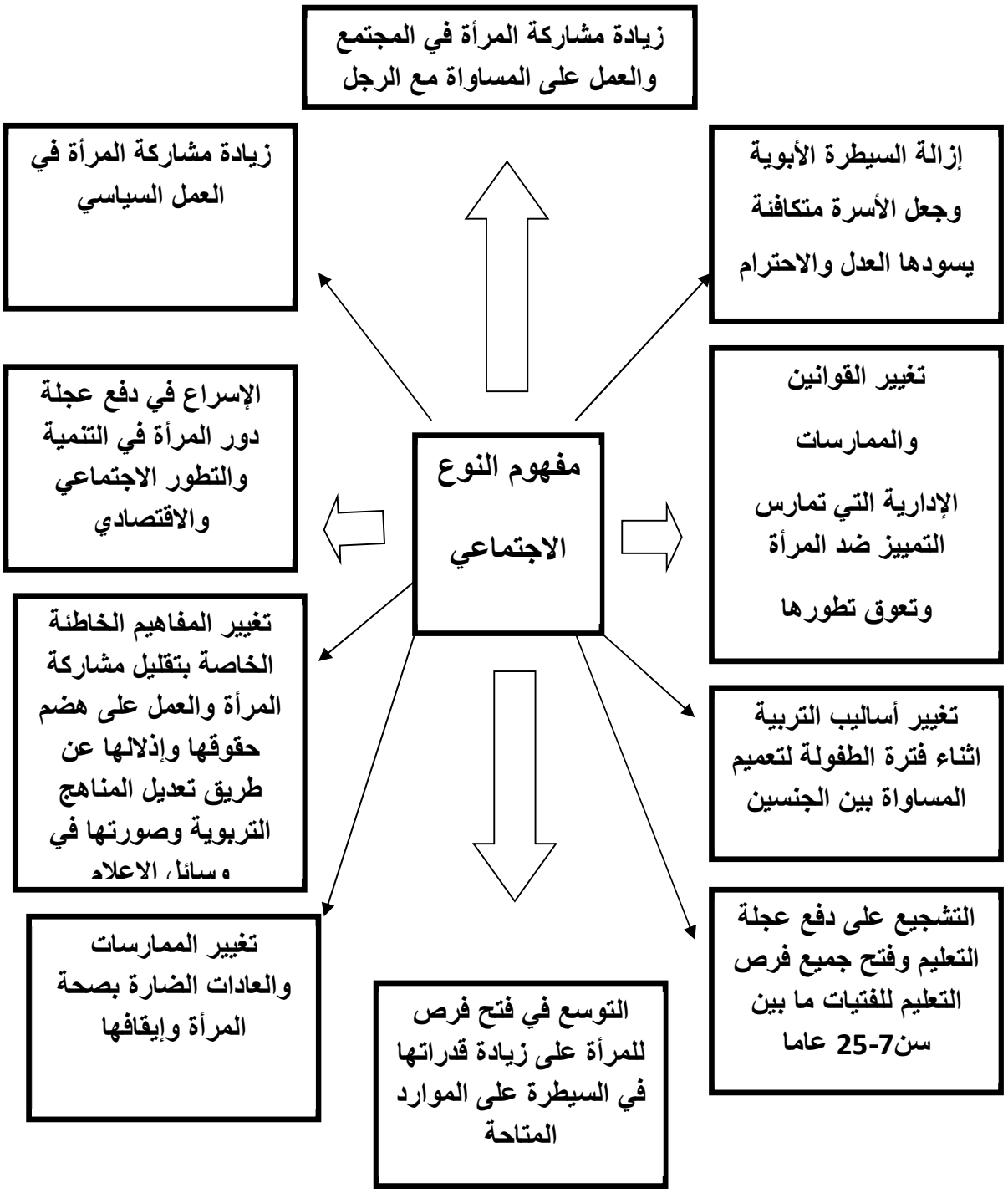
زيادة مشاركة المرأة في المجتمع والعمل على المساواة مع الرجل
زيادة مشاركة المرأة في العمل السياسي
إزالة السيطرة الأبوية وجعل الأسرة متكافئة يسودها العدل والاحترام
الإسراع في دفع عجلة دور المرأة في التنمية والتطور الاجتماعي والاقتصادي
مفهوم النوع الاجتماعي
تغيير القوانين والممارسات الإدارية التي تمارس التمييز ضد المرأة وتعوق تطورها
تغيير المفاهيم الخاطئة الخاصة بتقليل مشاركة المرأة والعمل على هضم حقوقها وإذلالها عن طريق تعديل المناهج التربوية وصورتها في وسائل الاعلام
تغيير أساليب التربية اثناء فترة الطفولة لتعميم المساواة بين الجنسين
تغيير الممارسات والعادات الضارة بصحة المرأة وإيقافها
التشجيع على دفع عجلة التعليم وفتح جميع فرص التعليم للفتيات ما بين سن7-25 عاما
التوسع في فتح فرص للمرأة على زيادة قدراتها في السيطرة على الموارد المتاحة

خاتمة:

إن ما هفت إليه أطروحة الجندر، هو تحرير العقول والأفهام من التّنميطات العالقة حول الجنسين، المترسبة في لا وعينا الجمعي مسلمات وبديهيات، عمّقت قهر المرأة وإلجامها، وهدر طاقاتها، والدفع نحو قراءة الاختلافات الفيزيولوجية، قراءة مخصبة تتخطاها نحو الاحتفاء بالمرأة إنسانا فاعلا مماثلا للرجل، قادرا على اتخاذ القرارات، مشاركا في الوظائف القياديّة فتتآنس السلطة بعبارة 'روجي غار ودي.'[36]

الهوامـــــش:

[1] ثائر ديب، النّسويّة ومفهوم الجنوسة، مجلة الآداب العددان الثالث والرابع، 2003، ص 46.

[2]عصمت محمد حوسو، الجندر، الأبعاد الاجتماعية والثقافية، دار الشّروق للنّشر، ط 1، 2009، ص47.

*"النسويّة، هي كل جهد نظري أو عملي يهدف إلى مراجعة واستجواب أو نقد أو تعديل النظام السائد في البنية الاجتماعية الذي جعل الرجل هو المركز، والمرأة جنسا ثانيا في منزلة أدنى وقد ضمت النسوية ثلاث (كذا) موجبات."

[3]أسيمة درويش، الواحد متعددا، مجلة الآداب، العددان الثالث والرابع، 2003 ص 61.

[4]آمال قرامي، ظاهرة الاختلاف في الحضارة العربية الإسلامية: الأسباب والدلالات أطروحة دكتورا دولة، كلية الآداب جامعة منوبة، 2004/2003، ص 9- 10.

[5]إبراهيم الحيدري، النظام الأبوي وإشكالية الجنس عند العرب، الشافي للطباعة، ط3، 2008، ص 113.

[6] عصام عدواني، العنف والتمييز ضد المرأة في المغرب، مجلة المستقبل العربي 2003، ص 72

[7] آمال قرامي، ظاهرة الاختلاف ...، ص 15.

[8] ثائر ديب، النّسويّة ومفهوم الجنوسة، ص 47.

[9]المرجع نفسه، ص 47.

[10] تتميز شعوب المونداغمور (Mandogamore) بالعنف والخشونة في كلا الجنسين، وكلاهما يحاول الابتعاد عن تربية الأطفال ورعاية المنزل اذ يتمتعان بصفات ذكوريّة حسب السائد عندنا في الثقافة العربية. في حين لا يوجد عنف او سيطرة أحد الجنسين عند شعب الأرابيش، إذ تغلب على كلا الجنسين صفات أنثوية كما هو سائد في الثقافة العربية والطريف مع شعب التشامبولي الذي بدأ ضديدا لما استقر في الثقافة العربية. فالذكور يميلون إلى العاطفة ويعملون بالمهن الثانوية في المجتمع، بينما الرئاسة والزعامة وأعمال الحقل والصيد من نصيب الإناث.

[11]ألفة يوسف، وليس الذكر كالأنثى، الشركة التونسية للنشر، ط1، 2014، ص 189.

[12] العاد لخضر، فضيحة الفحولة ومأتمها الأخير، ضمن كتاب بنيان الفحولة أبحاث في المذكر والمؤنث لرجاء بن سلامة، دار المعارف للنشر، تونس، 2009 ص 8.

[13] ألفة يوسف، وليس الذكر كالأنثى، ص 18.

[14] العادل خضر، شجاعة الحقيقة، ضمن كتاب وليس الذكر كالأنثى، لألفة يوسف، ص 205.

[15] سارة جامبل، النسوية وما بعد النسوية، المجلس الأعلى للثقافة، الطبعة الأولى، القاهرة، ص 41.

[16] آمال قرامي، ظاهرة الاختلاف...، ص 15.

[17] عزه شراره بيضون، الجندر ماذا تقولين، الشائع والواقع في حياة النساء، دار السّاقي للنشر، ط1، 2012، ص 56.

[18] محمد عصمت حوسو، الجندر، ص 80.

[19] المرجع نفسه، ص 80.

[20] آمال قرامي، ظاهرة الاختلاف، ص15.

[21] العادل خضر، فضيحة الفحولة، ص 7.

[22] رجاء بن سلامة، بنيان الفحولة، ص13.

[23] سارة جامبل، النسوية وما بعد النسوية، ص 41.

[24] ثائر ديب، النسوية ومفهوم الجنوسة، ص 49.

[25] أميمة أبوبكر، شيرين شكري، المرأة والجندر، إلغاء التمييز الثقافي والاجتماعي، دمشق، دار الفكر المعاصر، ط1، 2002، ص 303.

[26] عصام عدواني، العنف والتمييز ضد المرأة في المغرب، مجلة المستقبل العربي، 2003، ص 72.

[27] محمد عصمت حوسو، الجندر، ص 73.

[28] جليلة الطريطر، مقاربة الهوية الأنثوية من الحكي الشفوي إلى الحكي الكتابي، الكتابة النسائية، محكي الأنا محكي الحياة، مجموعة من الكتّاب والكاتبات، اتحاد كتاب المغرب،2007، ص 129.

[29] شيرين أبو النجا، عاطفة الاختلاف، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1998، ص 118.

[30] شبل مالك، "الأنوثة والذكورة،" ورقة قدمت إلى الإسلام والحداثة، ندوة مواقف، لندن: دار السافي، 1990، ص 289.

[31] م.ن، ص 289.

[32] عبد الله، الغذامي، ثقافة الوهم: مقاربات حول المرأة والجسد واللغة، ط1، بيروت، المركز القافي العربي، 1998، ص 183.

[33] محمد عصمت حوسو، الجندر، ص 67.

[34] مجموعة مؤلفين، النوع الاجتماعي وإبعاد المرأة في الوطن العربي، منظمة المرأة العربيّة، 2010 ص 41.

[35] مجموعة مؤلفين، التنمية والنوع الاجتماعي، الوحدة الثالثة، صندوق الأمم المتحدة الإنمائي للمرأة، المكتب الإقليمي للدول العربية، ط4، 2001، ص10.

[36] روجي غاروري، في سبيل ارتقاء المرأة، ترجمة جلال مطرجي، ط، 2، دار الجيل، بيروت، 1988 ص 13.